# مدخل

## فى دراسة جذور الأديان

تشترك علوم كثيرة، فى دراسة جذور الأديان: علم الأحافير (الحفريات) علم الآثار. علم التاريخ. علم دراسة المتون القديمة. علم الأنثروبولجى (الإنسان) علم النفس الاجتماعى. علم الاجتماع الدينى. علم الأديان المقارن. علم اللغة المقارن.

كانت الدراسات - حتى أوائل القرن العشرين - تصل بتاريخ ظهور السلالات البشرية إلى عدّة مئات من آلاف السنين.. ولكن منذ منتصف القرن العشرين، ارتفع تاريخ السلالات البشرية إلى بضعة ملايين من السنين، حيث ظهرت فى مناطق السافانا (الحشائش والأعشاب والشجيرات الصغيرة) حفائر لذلك «الواقف على قدميه»، وهو ما كان يطلق عليه أحيانا «إنسان الكهوف».. ثم ظهر إنسان نياندرتال» الذى يزيد تجويف مخّه عن تجويف مخ النمط السابق بأكثر من النصف.. ولا يختلف - فى حجم مخّه - عن النمط الإنسانى العاقل المعاصر السائد منذ فترة **Homo Sapiens**.

لقد تمكن العلم الآن من تحديد موت أصحاب العظام البشرية والحيوانية التى يعثَرُ عليها، وذلك باستخدام اختبار كربون ١٤ المشعّ، وباستخدام امتصاص العظام لمادّة الفلورين (الموجودة فى التربة) والطريقتان، إذا اجتمعتا معاً، فإنها تقلل احتمالات الخطأ عند حدود مائة عام.

وبدهىٌّ أن القصص والأساطير التى ذكرتها الديانات، ما هى إلا محاولة

لتفسير ظهور الإنسان على هذا الكوكب، ويرتبط بها عادة تفسير ظهور الآلهة.

ولو تخيّلنا طفلا وليداً فى العصور السحيقة، فقد أمّه حيث افترسها وحش من وحوض العابة، وأن ذلك الوحش لم ينتبه للطفل الوليد، فإذا جاءت أنثى من القرود واحتضنت الطفل وقامت بتربيته، فإن هذا الطفل بعد أن يكبر ينتمى لأمّه القرديّة.. ولو احتضنّتْهُ لبؤة، فسوف ينتمى لعالم الأسود واللبؤات.

وهكذا كان حال الإنسان البدائى، فى مراحل الخرافة والأسطورة الدينية، يؤمن عن «يقين» بالقصة التى تقدّم له عن سرّ العالم، وسرّ الإنسان وأسرار الآلهة.. بل لاتزال النسبة الغالبة من البشر البسطاء الصادقين يؤمنون بتفسيرات أديانهم للتواريخ والظواهر.

ونحن أطفال فى القرية، وفى سنة ١٩٤٧ حدث خسوف للقمر، فى منتصف شهر قمرى، واختفى معظم القمر.. فخرج رجال يدقّون على طبول ضخمة، ونساء يدقون بأوعية نحاسية، وكنا نردّد خلفهم: «يا سيّدنا يا عُمَر.. فُك خنقة القمر» وبالفعل فُكّتْ خنقة البدر وسطع نوره من جديد.

قلنا أن البسطاء الصادقين من البشر، ليس لهم إلا أن يؤمنوا بتفسيرات أديانهم.. ولكنْ مع هؤلاء البسطاء الصادقين تبرزُ مجموعات من مرتزقة الدين وبعضهم يحمل درجات علمية فى العلوم، لكنْ؛ لا يتورّع عن أن يُرَدِّدُ ما كان يُرَدِّدُه البشر فى القديم.. المسألة عند هؤلاء أن الدين «يُستخدم باعتباره «بيزينس» ويُستخدمُ كثيرون من هؤلاء كأبواق لدولة ما أو لفقيه ما أو لنظرية ما، ولقد وعَى أبو الطيب المتنبى أمر هؤلاء «البُوقات والطبول» فقال مادحا سيف الدولة الحمدانى:

إذا كان بعضُ الناس سيفًا لدولةٍ فبعضهمُ ( و ) بوقات لها وطبولُ

هؤلاء « البوقات والطبول » يرتزقون بالدين، ولتذهب أمتهم إلى الجحيم.

هؤلاء هم الذين كفّروا أبا الوليد ابن رشد، وسخروا منه، حين سُئِل عن بحر الظلمات وأعمدة هرقل فقال: « . . . أعتقد أن وراءَ هذا الماءِ ماءً، وجُزُراً بها بشرٌ مثلنا » . . ولم يسخر منه الأسبان والبرتغال، بل صدّقوه، وقاموا بحركة « الكشوف الجغرافية » وأضافوا ـ إلى أوربا ـ الأمريكتين واستراليا وجُزُر الأوقيانوس العظيم.

صحيح أن نسبة لا بأس بها من علمائنا ومثقفينا العرب، يؤمنون بالانجازات العلمية والمناهج العلمية، إلا أنّ هذه النسبة غير كافية لخلق « رأى عام » ضد الخرافات والأساطير، إن « الرأى العام » المتحرّر من ربقةَ الجهل والخضوع لسطوة الكنيسة، منذ بَدْءِ عصر النهضة، أعاد الكنيسة فى أوربا إلى حجمها الطبيعى، وحدث الفصل الكامل بين الدين والدولة، وساد العلم. . بل وظهرت « البروتستانتية » فى ألمانيا ( على يد مارتن لوثر وكالفن ) محتضنة الوطنية الألمانية، ومبتعدةً عن « روما » الكاثوليكية، التى كانت ـ لا تزال ـ تضع القيود على العلم والعلماء، وتكفّر بعضهم وتقتلُ وتسجنُ آخرين.

ومن الأمور المذهلة فى الثقافة العربيّة، أن فقيها كابن خلدون[١]، وهو قريب من العصور الوسطى بظلامها، يرى « فصل الدين عن الدولة »، فمن وجهة نظره « أنّ الإمامة ليست من أركان الدين، وإنما هى من المصالح العامة المفَوّضَة إلى نظر الجماعة . . . ولو كانت من أركان الدين، لكان شأنُها شأن

( ١ ) مقدمة ابن خلدون، طبع عبد الرحمن محمد صاحب المطبعة البهية - القاهرة - بدون تاريخ. ص ٢٥٢ - ٢٥٣.

الصلاة، ولكان يُستَخْلفُ فيها، كما استخلف الرسولُ أبا بكر في الصلاة » بل إنه(٢) يحمّل الدولة مسئولية « إفساد العمران » : « والعدوان على الناس في أموالهم وحُرَمِهم ودمائهم وأسرارهم وأعراضهم مما يُفْضِي إلى الخلل والفساد.. وتُنْتَقَضُ الدولة سريعا بما ينشأ عنه (عن الفساد) من الهرج المُفضي إلى الانتقاض.. ومن أجل هذه المفاسد حظر الشرع ذلك كلَّه وشرع المكايسة (الرّقة وحسن الأسلوب) في البيع والشراء، وحَظَرَ أكْلَ أموال الناس بالباطل سداً لأبواب المفاسد المؤدية إلى انتقاض العمران. واعلمْ أنّ الداعي لذلك كلّه إنما هو حاجة الدولة والسلطان إلى الإكثار من المال بما يعرض لهم من الترّف في الأحوال، فتكثر نفقاتهم ويعظم الخرْج (الصرف) ولا يفي به الدخل، فيستحدثون ألقاباً ووجوها يوسّعون بها الجباية ليفيَ لهم الدّخل بالخرْج (الصرف) ثم لا يزال الترف يزيد والخرج (الصرف) بسببه يكثر والحاجة إلى أموال الناس تشتدّ، ونطاق الدولة بذلك يزيد إلى أن تنمحي دائرتها ويغلبها طالبها... ».

إن الأمم الغربية ـ لغلبة « الرأى العام العلمى » بها، سارت في طريق التقدّم والانتاج حتى صارت الأمة العربية والإسلامية عالة على الغرب في الدواء والعلم والسيارات والطائرات وأدوات الجيوش من دبابات ومدافع ورادارات.. وكافّة مفردات العلم والانتاج.

ولا تزال لدينا تلك « البوقات والطبول » التي تعزف على « أوتار القديم »، وتعادى كل جديد لجهلها به، أو لأنها تعمل بنظرية « الجهد الأقلّ »

---

(٢) مقدمة ابن خلدون، طبع عبد الرحمن محمد صاحب المطبعة البهية - القاهرة - بدون تاريخ. ص ٢٥٢ - ٢٥٣.

إذ إن الإنسان بل والحيوان أيضا يميل إلى الحرص على جهده، ويعمل على بذل أقل جهد، حتى أنه يطبق القاعدة الرياضية: «الخط المستقيم أقرب مسافة بين نقطتين» دون وعي منه، سوى عمله بفكرة «الجُهْد الأقل».. وبدهيّ أن الجديد يحتاج إلى «جهد ومعرفة وخروج عن المألوف».. وقديما قال الجاحظ في «الحيوان»: «إنّ كثيرين من الخَلْق يسيرون في الطريق المطروق الذي ألفوه، كما تكره الحمير الطريق الذي لم تألفْه».

أما العقلاء، ومحبّو الاستطلاع، والذين يميلون إلى الكدح الذهني والبحث، فإنهم يميلون إلى اجتياز الآفاق الجديدة، والأمور المجهولة.. وهكذا يتقدمون بينما نتخلّف نحن، يبتسمون حينما يسمعون الأساطير يردّدها المؤمنون بها، عطفا على المؤمنين بها، إذ هم كالعميان الذين يتخبطون بعقبات الطريق... أما نحن، فإمّا أن نؤمن بالأساطير، وإمّا أن نُوصَمَ بالكفر.

**علي الألفي**

(المنصورة أول يناير ٢٠١٠)